سرّ قلب الإنسان - ١

الأرشمندريت زخريا زاخارو
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

كل قوانين الكنيسة الطاهرة أُعطيَت للعالم لغرض وحيد هو اكتشاف "القلب العميق" (أنظر مزمور ٦٤:٦) مركز أقنوم الإنسان. وفقًا للكتاب المقدس ، فقد صاغ الله كل قلب بطريقة خاصة، وكل قلب هو هدف له، وهو المكان الذي يرغب أن يسكن فيه حتى يظهر ذاته.

بما أن ملكوت الله في داخلنا (أنظر لوقا ١٧:٢١)، فالقلب هو ساحة معركة خلاصنا، وكل الجهد النسكي يهدف إلى تطهيره من كل قذارة وحفظه طاهرًا أمام الرب. "فَوْقَ كُلِّ تَحَفُّظٍ احْفَظْ قَلْبَكَ، لأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ" يحث سليمان ملك إسرائيل الحكيم (أمثال ٤:٢٣). تمر مخارج الحياة هذه عبر قلب الإنسان، وبالتالي فإن الرغبة التي لا تنقطع لكل من يسعون بلا كلل إلى وجه الله الحي هي أن قلبهم، الذي مات مرة بسبب الخطيئة، يُعاد إحياؤه بنعمته.

القلب هو "الهيكل" الحقيقي لاجتماع الإنسان مع الرب. إن قلب الإنسان يطلب المعرفة (أمثال ١٤:١٥) الفكرية والإلهية، ولا يعرف راحة حتى يأتي رب المجد ويثبت فيه. من جانبه، الله الذي هو "إله غيور" (خروج ٣٤:١٤) لا يكتفي بجزء من القلب. في العهد القديم نسمع صوته صارخًا "يا بني، أعطني قلبك" (أمثال ٢٣:٢٦) وفي العهد الجديد يأمر: "تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ" (متى ٢٢:٣٧). إنه مَن صنع قلب كل إنسان بطريقة فريدة وغير متكررة، على الرغم من أنه لا يوجد قلب قادر على احتوائه بالكامل لأن "الله أعظم من قلوبنا" (١يوحنا ٣:٢٠). ومع ذلك، عندما ينجح الإنسان في تحويل قلبه كله إلى الله، فإن الله نفسه يولده من بذرة كلمته غير القابلة للفساد، ويختمها باسمه العجيب ويجعلها تتألق بحضوره الدائم والمواهبي. إنه يجعله هيكلًا لألوهيته، هيكلًا غير مصنوع بالأيدي، قادرًا على إظهار "هيئته" وسماع "صوته" و "حمل" اسمه (أنظر يوحنا ٥:٣٧؛ أعمال ٩:١٥). باختصار، يحقق الإنسان هدف حياته، وسبب مجيئه إلى وجود هذا العالم العابر.

تكمن المأساة الكبرى في عصرنا في حقيقة أننا نعيش ونتحدث ونفكّر بل ونصلي إلى الله خارج قلوبنا أي خارج بيت أبينا. وبيت أبينا حقًا هو قلبنا، المكان الذي يجد فيه "روحُ المجد والله" (١بطرس ٤:١٤) الراحةَ، حتى "يتصوّر فينا"(غلاطية ٤:١٩). في الواقع، عندها فقط يمكننا أن نصبح كاملين، وأن نصير أقانيم على صورة الأقنوم الحقيقي والكامل، ابن الله وكلمته، الذي خلقنا وافتدانا بدم ذبيحته التي لا توصف.

ومع ذلك، طالما أننا أسرى عواطفنا التي تصرف أذهاننا عن قلوبنا وتجذبها إلى عالم الأشياء الطبيعية والمخلوقة الدائم التغيّر، وبالتالي تحرمنا من كل قوة روحية، فلن نعرف ولادة جديدة من العلى تجعلنا أبناء الله وآلهة بالنعمة. في الواقع، بطريقة أو بأخرى، نحن جميعًا "أبناء ضالّون" لأبينا الذي في السماء لأنه، كما يشهد الكتاب المقدس، "الجميع أخطؤوا، وأعوزهم مجد الله" (رومية ٣:٢٣). لقد أبعدت الخطيئة عقلَنا عن تأمل الله الواهب الحياة وقادته إلى "بلد بعيد" (لوقا ٩:١٥). في هذا "البلد البعيد" حُرمنا من شرف حضن أبينا، وفي إطعام الخنازير أصبحنا خاضعين للشياطين. لقد سلمنا أنفسنا للأهواء المخزية والمجاعة الخطيئة الرهيبة التي رسّخت نفسها بالقوة لتصبح شريعة أعضائنا. لكن علينا الآن أن نخرج من هذا الجحيم الكفري ونعود إلى بيت أبينا لنقتلع قانون الخطيئة الذي بداخلنا ونسمح لقانون وصايا المسيح أن يحلّ في قلوبنا. هذا لأن الطريق الوحيد للخروج من عذاب الجحيم إلى فرح الملكوت الأبدي هو طريق الوصايا الإلهية: أن نحب الله وقريبنا بكل كياننا بقلب خالٍ من كل خطيئة.

إن رحلة العودة من هذه الأرض النائية غير المضيافة ليست رحلة سهلة ولا يوجد جوع أكثر إثارة للخوف من قلب هلك بالخطيئة. الذين يمتلئ قلبهم من عزاء النعمة التي لا تفنى، يمكنهم أن يتحمّلوا

كل الحرمان والضيقات الخارجية، ويحولوها إلى عيد فرح روحي؛ ولكن المجاعة في قلب قاسٍ يفتقر إلى العزاء الإلهي هي عذاب بلا راحة. لا توجد مصيبة أعظم من قلب بليد ومتحجر غير قادر على التمييز بين طريقة العناية الإلهية المنيرة وتشويش أساليب هذا العالم الكئيب. من ناحية أخرى، عبر التاريخ كان هناك رجال امتلأت قلوبهم بالنعمة. هذه الأواني المختارة مستنيرة بروح النبوءة، وبالتالي كانت قادرة على التمييز بين النور الإلهي وظلام هذا العالم.

بغض النظر عن مدى صعوبة ورهبة الجهاد لتطهير القلب، فلا شيء يجب أن يمنعنا من هذا التعهد. لدينا من جانبنا خير لا يوصف لإله جعل قلب الإنسان همّه الشخصي وهدفه. نقرأ في سفر أيوب الكلمات المدهشة التالية: "مَا هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَعْتَبِرَهُ، وَحَتَّى تَضَعَ عَلَيْهِ قَلْبَكَ؟ وَتَتَعَهَّدَهُ كُلَّ صَبَاحٍ، وَكُلَّ لَحْظَةٍ تَمْتَحِنُهُ؟.. لِمَاذَا جَعَلْتَنِي عَاثُورًا لِنَفْسِكَ حَتَّى أَكُونَ عَلَى نَفْسِي حِمْلًا؟" (أيوب ٧:١٧-١٨، ٢٠). نشعر بالله الذي لا يمكن فهمه ساعياً وراء قلب الإنسان : "هئَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي" (رؤيا ٣:٢٠). إنه يقرع على باب قلبنا ويشجعنا أيضًا على أن نطرق باب رحمته: "اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ" (لوقا ١١:٩). عندما ينفتح البابان، صلاح الله وقلب الإنسان، تحدث أعظم معجزة في وجودنا: يتّحد قلب الإنسان بروح الرب والله يحتفل مع أبناء البشر.

نحن نحرم أنفسنا من فرح تعزية الله ليس فقط عندما نسلّم أنفسنا لفساد الخطيئة ونطعم الخنازير في بلد بعيد، بل أيضًا عندما نسلك بإهمال. ويحذر النبي إرميا: "مَلْعُونٌ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ الرَّبِّ بِرِخَاءٍ" (ارميا ٤٨:١٠) الشيطان عدونا يعطينا عملاً ملعونًا في تغذية الخنازير. إذا قمنا بعمل الرب بفتور، فإننا نضع أنفسنا تحت اللعنة، على الرغم من أننا قد نكون ساكنين في بيت الرب. لان الله لا يحتمل انقسام قلب الانسان. إنه يرضى فقط عندما يخاطبه الإنسان من كل قلبه ويقوم بعمله بفرح. يقول الرسول "الْمُعْطِيَ الْمَسْرُورَ يُحِبُّهُ اللهُ" (٢كورنثوس ٩:٧). يريد أن يتحوّل قلبنا كله ويتكرّس له، فيملأه بنعم لطفه وعطايا رحمته. إنه "يَزْرَعُ بِالْبَرَكَاتِ" (٢كورنثوس ٩:٦) ويتوقع نفس الشيء منا.

من خلال الأفكار القليلة التي ذكرناها، نبدأ الآن برؤية كم هو ثمين أن نقف في حضرة الله بكل قلوبنا وأن نسكبها أمامه. نبدأ أيضًا بفهم مدى أهمية مهمة اكتشاف القلب، لأن هذا يسمح لنا بالتحدث مع الله أبينا من القلب وأن يسمعنا، ونمنحه الحق في إكمال عمل تجديدنا وإحيائنا واستعادة الشرف الأصلي الذي تمتعنا به كأبناء له.

يتبع